# (الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة)
# دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ

د. هند مصطفى أحمد قناص
الأستاذ المساعد في البلاغة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة
حاصلة على الماجستير من جامعة طيبة بتخصص أدب وبلاغة ونقد
حاصلة على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتخصص البلاغة والنقد
hgannas@taibahu.edu.sa

**ملخص البحث:**

**موضوع البحث:**

توظيف المنهج الظاهراتي النقدي في دراسة بلاغة نص للجاحظ من تراثنا الأدبي البليغ، وإبراز خصائصه الأسلوبية؛ لتوليد أدبٍ بليغٍ أصيلٍ بحلة جديدة، وتناولت الدراسة في الجانب الأول مفهوم النظرية ونشأتها وتطورها وموضوعاتها وغرضها ووظيفتها ودورها وأبرز خصائص البحث الظاهراتي وخطواته المنهجية، وعلاقته ببعض المناهج، وعلاقته بالبلاغة الجديدة، ثم طبقت الدراسة في قسمها الثاني المنهج محللة نصا للجاحظ في كتابه البخلاء تحليلًا بنيويًّا أسلوبيًّا.

**أهداف البحث:**

إحياء التراث الأدبي في ظل رؤية بلاغية جديدة بالاستعانة بآليات النقد الحديث.

**منهج البحث:**

المنهج الوصفي ومنهج الظاهراتية.

**أهم النتائج:**

تدرج مفهوم الظاهراتية وتشعب مفاهيمها، وفاعليتها في وصف الظواهر، وقدرتها على إبراز خفايا بعض النصوص، وارتباطها بغيرها من النظريات المعاصرة، والارتباط الوثيق بين البلاغة والنقد المتمثل في ضرورة التكامل والتلازم بينهما لكشف جماليات الأسلوب وبلاغته في التراث الأدبي القديم.

**أهم التوصيات:**

تناول نصوص التراث الأدبي القديم بالتحليل والدراسة وفق المناهج النقدية الحديثة وإثراؤها فنيًّا في ضوء رؤية بلاغية جديدة.

**الكلمات المفتاحية:**

الظاهراتية، الفينومينولوجيا، البلاغة الجديدة، كتاب البخلاء، الجاحظ.

**Abstract**

**Study Topic:**

This research investigates the utility of the phenomenological critical approach in examining the rhetorical aspects of a text by Al-Jahiz, a figure from our eloquent literary heritage. The aim is to spotlight its stylistic attributes and to foster original eloquent literature in an innovative format. The initial segment of the study elucidates the theory's concept, its genesis, evolution, subjects, objective, function, role, and the distinguishing features of phenomenological research, including its methodological steps, its correlation with certain approaches, and its association with new rhetoric. Subsequently, the second section of the study uses this approach to conduct a structural stylistic analysis of a text by Al-Jahiz from his book "Al-Bukhala" )Misers(.

**Study Goals:**

The research aims to rejuvenate the literary heritage through a fresh rhetorical perspective, aided by contemporary criticism mechanisms.

**Research Methods:**

The research employs descriptive methodology and phenomenology.

**Primary Outcomes:**

The research reveals the progressive nature of phenomenology and the diversification of its concepts, its efficacy in explicating phenomena, its potential to expose the intricacies of certain texts, its connection with other modern theories, and the intimate relationship between rhetoric and criticism. The latter outcome is manifested in the essentiality of their integration and mutual dependence to unveil the aesthetics of style and its eloquence in the ancient literary heritage.

**Principal Recommendations:**

The research recommends the analysis and study of ancient literary heritage texts using modern critical methodologies and their artistic enrichment under a renewed rhetorical vision.

**Keywords:**

Phenomenology, New Rhetoric, Al-Bukhala Book, Al-Jahiz.

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن البلاغة والنقد الحديث لمن أهم الدراسات التي ينبغي لنا أن نستوعبها ونتناولها بالشرح والتحليل، فمن خلال هذه المناهج يستطيع الباحثون دراسة ما لديهم من نصوص قديمة وحديثة، واستخراج الجماليات والأسرار البلاغية الكامنة فيه، ومن هذه النظريات والمناهج الحديثة تطل علينا البلاغة بثوب جديد عبر تناول الأدب مؤخرًا بآلية الظاهراتية (الفينومينولوجيا)، فقد واجه عدد من الأدباء والنقاد بعض الإشكالات خاصة في الجانب التطبيقي، حيث بدأ أتباعها ينظرون لها في مجالات البحث في العلوم الإنسانية المختلفة بشكل عام، وفي الميادين الثقافية على وجه خاص؛ فظهرت الحاجة إلى التجديد في التراث الأدبي وفق المعطيات الحديثة، وكانت الدراسة (الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة: دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ)؛ لتظهر أهميتها في كونها منهجا وأداة مهمة من أدوات النقد الحديث تكشف عن رؤية بلاغية جديدة بعد الحجاج، حيث تصف ظواهره، وتقوم على الاتصال الإنساني وتتفاعل معه باللغة وتحضر بوعي في زمن ومكان وإدراك من كل الأطراف في تجربة معاشة، حاولت الباحثة الإفادة من هذا المنهج الظاهراتي في التطبيق والتحليل البلاغي على نصوص قيمة من التراث، وانطلاقا من هذه الأهمية تهدف الدراسة إلى التعريف بهذه النظرية في جزئها النظري، وتوظيفها لتجديد الدرس البلاغي والكشف عن ثراء التراث الأدبي العربي بلاغيًّا، والكشف عن جمالياته بقراءته بأدوات جديدة معاصرة عن طريق نص للجاحظ في الجزء التطبيقي، واعتبارها محاولة جادة لدراسة بلاغية نقدية توظِّف النظريات النقدية الحديثة لخدمة البلاغة الجديدة في النصوص الأدبية العربية القديمة، مع الحفاظ على طبيعتها وعدم الإخلال بشيء فيها، فكيف يمكن أن يستفاد منها في البلاغة؟

من هذا السؤال انطلقت الباحثة متناولة في البحث جانبين: (نظري وتطبيقي)، فكان الجانب النظري متضمنًا في المبحث الأول، وكانت مطالبه تتناول: مفهوم الظاهراتية،

ونشأتها، وتطورها، وموضوعات الظاهراتية، وغرضها، ووظيفتها، ودورها في الاتصال الإنساني، و(القصدية) و(الحدس)، والزمان والمكان في الظاهراتية، ارتباطها بالهرمينوطيقا، وبعلم الدلالة، ودورها في مجال الأدب والبلاغة، وعلاقتها بالمناهج الأخرى (الوجودية، ونظرية التلقي، والبنيوية)، والخطوات المنهجية للبحث الظاهراتي، وخصائص المنهج الظاهراتي.

أما المبحث الثاني (التطبيقي) فقد تناول نصًّا من نصوص الجاحظ في كتابه البخلاء، وهو محاولة لقراءة هذا النص السردي وتحليله، واتبعت الدارسة المنهج الوصفي في الدراسة النظرية، والمنهج التحليلي (الأسلوبي والبنيوي) والمنهج الظاهراتي في الدراسة التطبيقية.

ومن الدراسات السابقة القريبة من هذا الموضوع وأفادت منها الباحثة في التطبيق:

- ملامح الظاهراتية في الشعر العباسي عرض وتحليل، لعيسى جعفر الحركاني، جامعة واسط، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، (٢٠١٩)، المجلد ٣ العدد ٣٢.
- النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام كاظم الأوسي، مجلة اللغة العربية وآدابها، العراق، ع١٢ (٢٠١١).
- المنجز القصصي للقاص حميد الزاملي دراسة ظاهراتية: عبد علي فرحان الغرباوي، وزارة التربية، محافظة واسط، مج ٢، ع ٤١ (٢٠٢٠).
- ظاهراتية الصورة الشعرية في النص العربي: صراعية الترابية والهوائية عند عنترة بن شداد، رانية العرضاوي، جامعة قطر (٢٠١٧).
- تطبيق الظاهراتية على التراث عند حسن حنفي: فضيلة خالدي، مجلة الآداب واللغات، مج ٩، ع ٧٨ (٢٠٢١).
- قراءة ظاهراتية للصورة الكونية في شعر الصعاليك: قصيدة عروة بن الورد "أقلي علي اللوم يا ابنة منذر" نموذجا: رانية العرضاوي، جذور، ج١٣١(٢٠٢١م).

وتختلف الدراسة التي بين أيدينا عن هذه الدراسات في التطبيق والتوظيف للمنهج الظاهراتي حيث كشفت عن ظاهرة البخل لمعالجتها في ذلك المجتمع، واستعانت بالأبنية والظواهر المدركة في تحليلها وفق المنهج الظاهراتي، بينما كانت الدراسة الأولى من بين

الدراسات المذكورة آنفًا تكشف ملامح الظاهراتية في الإيقاع والموسيقى والألفاظ والأساليب والصورة الشعرية في الشعر العباسي، ووظفت الدراسة الثانية النظرية جماليًّا في القصيدة مستعينة بالتأويل مركزة على الوجود الشعري، واتخذت الدراسة الثالثة المنهج الظاهراتي أداة لقراءة واقع الكاتب من قصصه، فحلَّل العناوين والثنائيات الضديَّة في النصوص، ومزج بين ألوان متناقضة، وكذلك الدراسة التي تليها حلَّل البحث بعض الصور الشعرية في شعر عنترة وفق المنهج الظاهراتي، وحاولت الدراسة التالية تحليل النصوص الدينية واستحضارها باتباع المنهج الظاهراتي، واختلفت الدراسة الأخيرة عن هذه الدراسة بتطبيقها المنهج النقدي الفلسفي للظاهراتية الجمالية على قصيدة من شعر عروة بن الورد
من شعراء الصعاليك.

هذا ونسأله تعالى التوفيق والسداد.

المبحث الأول: (الفينومينولوجيا: الجانب النظري)

مفهوم الظاهراتية، ونشأتها، وتطورها:

الظاهراتية (phenomenology)،والظواهرية، والظاهرية...[١]، مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية (phainomenon)، وتعني الظهور، أو الشيء الذي يظهر نفسه، وتعني الظاهراتية دراسة (الظاهرات) أي الشيء الذي يبدو للوجدان، الشيء المعطى، فالعالم الذي نعيش فيه وندركه بالتجربة هو عالم ظاهري، أي أن هذه النظرية تدرس (الظاهر) أو (الظاهرة)، وهي كل واقعة يمكن إدراكها بالحواس والتجربة[٢]، والظاهر: هو الحوادث الملاحظة بواسطة الحواس، التي تدور حولها المعرفة عامة[٣]، وسميت بذلك بسبب الدور الرئيسي الذي تعطيه للإدراكات والمعارف والمشاعر في فهم كنه الشخصية[٤]، وقد عُرِّفت الظاهراتية بأنها علم الظواهر، وتجري دراستها على الطريقة الوصفية[٥].

ولا يختلف معنى كلمة (الظاهر) في اللغة العربية عنه في اللغات اللاتينية الحديثة، إذ يقصد بها ما ظهر من الشيء مقابل ما خفي منه، والجمع ظواهر[٦].

وقد استعملت الكلمة أولًا في ميدان علم النفس لتدل على الظواهر السيكولوجية (الرغبة، والإدراك، والإحساس)، وتقوم على ملاحظة الظاهرة ووصفها كما هي معطاة، بقصد تحليلها وتحديد خصائصها، وفهمها على وجه الخصوص، ولكن الفينومينولوجيا في إطارها الفلسفي تعني تحديد بنية الظواهر وشروطها العامة، بمعنى شكل الظهور أو الانبثاق

(١) ينظر: معجم السيميائيات، فيصل الأحمر (ص٣٠٥). نظرية المعنى، أحمد الودرني (ص٨٩).

(٢) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس (ص٢٤٠). الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص١٧). الظاهراتيَّة، جان ليوتار (ص٦). الفينومينولوجيا عند هوسِّرل، سماح محمد (ص٥٢). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش (ص٢٨٨). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد (ص٣٥٢). المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي (ص٣٦). نظرية المعنى، أحمد الودرني (ص٨٩).

(٣) ينظر: الفينومينولوجيا عند هوسِّرل، سماح محمد (ص٥٣).

(٤) ينظر: موضوع علم الدلالة منظور فينومينولوجي، منذر عياشي (ع٦/ص٢٣).

(٥) ينظر: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد (ص٣٥٢).

(٦) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة ظهر (٤/٥٢٠).

-لأي ظاهرة كانت- الذي يتصل لأول وهلة اتصالًا مباشرًا بالوعي، فأول التقاء للوعي الذي أثارته، وجلبت انتباهه ظاهرة معينة، هو صلب المسائل التي تحاول الفينومينولوجيا معالجتها(١).

ولد هذا المصطلح والحركة الفلسفية في ألمانيا في القرن العشرين على يد مؤسسها (إدموند هوسِّرل) ١٨٥٩م-١٩٣٨هـ الذي أقامها ضد المدرسة الشكوكية الذين يشككون في المعرفة الحقيقية، وعلى يد فلاسفة آخرين أمثال (هيدجر، وجاسبيرز)، وآزرها آخرون أمثال (ميرلو بونتي، وغاستون باشلار، وسارتر، ودي بوفورا ) في فرنسا، والبولندي (رومان إنغاردن)، وأتمها مجموعة من الأمريكيين من مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، وتطورت آراء هوسِّرل بعده إلى نظرية نقدية بواسطة المفكرين السابقين وبالإضافات النظرية والتطبيقية التي أسهم بها عدد من النقاد(٢).

وقام هذا المنهج على فكرة جوهرية مفادها أن الأشياء لا توجد بصفتها أشياء في ذاتها بكيفية خارجية وقبلية مستقلة، إنما تظهر بصفتها أشياء يفترضها ويقصدها الوعي، أي أن الأشياء ليست موجودة إلا بفعل وعي الأشياء، وإن وجود الأشياء فعل قصدي يقوم به (الوعي) من خلال محايثة وعيه للموضوع(٣)، وتتكون الشخصية في هذا المنهج من خبرات الشخص النفسية ومدركاته في المجال الظاهري الذي يعرفه هو فقط، ويستجيب للبيئة حسب مجاله الظاهري، ويولي خبراته إلى صور رمزية(٤).

والظاهراتية تصف كيفية العرض، فالمنهج ليس في التعلُّق بالشيء، وإنما بالكيفية التي يكون بها هذا الشيء موجودًا(٥)، أي أن السؤال الأساسي لدى الباحث الظاهراتي هو

(١) ينظر: الفينومينولوجيا: ماهيتها ونظريتها في الفلسفة، محمد البشر (ع٨٨/١٥٣). الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد الزين (ع٧١/١٦-٧٣). الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص١٧). الظاهراتيّة، جان ليوتار، (ص٤٣- ٤٧).

(٢) ينظر: الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص١٧). دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي (ص٣٢١).

(٣) ينظر: ظاهراتية الحلم في شعر نازك الملائكة، محمود خضير (ع٣/٧٠،٧١).

(٤) ينظر: الشخصية: النظرية التقييم مناهج البحث، نعيمة الشماع (ص٤٩).

(٥) ينظر: إشكالية العقل والوجود في فكر ابن عربي بحث في فينومينولوجيا الغياب، أحمد الصادقي (ص٤٢،٤٣).

كيف يدرك الأفراد المنهمكون في أدوارهم الاجتماعية المختلفة واقعهم الاجتماعي؟ وهو منهج يستند إلى ما هو معطى، وينظر مباشرة إلى الموضوع المتناول في الوعي، ويبتعد عن التجريب والاستنباط(١).

ولتتبع المفهوم وتطوره على يد أبرز أعلام هذه الفلسفة نعرض لهم في ما يلي:

- [إدموند هوسِّرل- Edmund Husserl] في تشيكوسلوفاكيا، وهو مؤسس الظاهراتية المعروفة الآن، وواضع مناهجها الأولى، طورها من خلال محاضراته وكتاباته، وأراد بها الوصول إلى جوهر المعرفة في الوعي الإنساني عن طريق التفكر والوصف، وهو صاحب نظرية القصدية، ويرى أن الوعي مصدر كل المعاني التي تتجسد في الواقع الذي يعيشه الإنسان، والظاهراتية عنده تبحث في وصف الظواهر(٢).
- [مارتن هيدجر- Martin Heidegger] من مدينة سكيرتش، تأثر بهوسِّرل، وتبنَّى فكره وفلسفته، ولكنه نحا بها منحى مختلفا؛ فالظاهراتية بالنسبة لهيدجر تعني (علم الوجود) أو الوجودية، أي أن الوجود الإنساني يعد ظاهرة تاريخية، والتاريخ عنصر ثابت من عناصر الطبيعة، فأضاف النزعة التاريخية لتفسير التجربة الإنسانية، واستخدم المنهج في وصف أحوال الشعوب، كالزمان والكينونة والقلق والإبداع(٣).
- [سارترJean-Paul Sartre] أخذ بفلسفة ثنائية الوعي والكون، وأفاد في الظاهراتية بتطبيقها على الأعمال الروائية؛ فبيَّن ما ندركه أثناء القراءة، وهو موقف معين للوعي يهدف من خلال العلامات إلى الموضوع الروائي الذي يشبه في وجوده الكثير من الصور الذهنية(٤).
- [موريس ميرلو-بونتي Maurice Merleau-ponty]، وجوهر فلسفته أن الوعي الإنساني ووجوده هو حقيقة موضوعية من حقائق الكون لا يمكن إنكارها، وهذا الوعي موجَّه

(١) ينظر: التيارات المعاصرة في فلسفة التربية، محسن خضر (ع١٦٤/ص١٣٤). فكرة الفينومينولوجيا، هوسِّرل (ص١٣٣-١٤٩).

(٢) ينظر: الفينومينولوجيا باعتبارها العلم الكلي عند هوسِّرل، سماح محمد (ص٤١). نظرية المعنى، أحمد الودرني (ص٩٠).

(٣) ينظر: فينومينولوجيا الخطاب البصري، جواد الزيدي (ص٧٤).

(٤) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي (ع١٢/ص٢٢١).

بطريقة إدراكية حسِّية إلى ما في هذا الكون من أشخاص وأحداث وأفكار وتجارب، والإدراك هو نتاج تجربة مادية جسدية، وهو مرحلة تسبق مرحلة التفكر والتأمل، اللذين يساعدان على توضيح الإدراك وفهمه، فإن لم يأتِ بعده فكر يجسده ويصفه يتلاشى بسرعة، ومرحلة التفكر والتأمل تستلزم (لغة)، وتفسير ميرلو-بونتي لعامل اللغة في الفلسفة الظاهراتية، هو أن المعنى مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتعبير عنه، ويحصل ذلك باللغة التي تجسده.

## موضوعات الظاهراتية وغرضها ووظيفتها ودورها في الاتصال الإنساني:

موضوعات الظاهراتية هي كافة أنواع الخبرة الإنسانية من التصورات، والفكر، والتخيل، والشعور، والرغبة، والاختيار، والوعي الجسماني، والفعل الرمزي والتمثيلي، والنشاط الاجتماعي، والنشاط اللغوي، والغرض من كل ذلك هو دراسة الأشياء أو الموجودات كظواهر ومعانٍ موجودة في خبرتنا الواعية[١]، كما تدرس الظاهراتية كل الموضوعات التي لها تحقق مادي واقعي في العالم، فليست الأشياء الداخلة في الرومانسيات أو الميتافيزيقية أو حتى المعنويات مما يقع تحت دائرة تخصصها، لكن المفارقة المذهلة في الظاهراتية أنها تدرس الأشياء المادية الفيزيائية دراسة تحطم الوجود المادي لتنتقل عبره إلى وجودٍ شاعري مستقر في القلب والروح، وعليه فإننا بهذا الحال نستطيع أن نجعل من الأشياء ذات الأبعاد الفيزيائية بلورة تطبيقية لفكر الفينومينولوجيا؛ ونصل إلى أعماق الكون عن طريق دراسة أجزاء يسيرة منه، فالأمطار والسيول والحقول والنجوم والرياح والحصى...لا تنفصل عن كيان الإنسان، وهي وجه من وجوهه، وجزء من كيانه يكمن فيها، ويتأثر بها، وتنتقل عدوى خصائصها إليه[٢].

أمَّا دورها في الاتصال الإنساني فنجد أن طرفي العملية الاتصالية يشتركان في صنع حدث، ويتوفر في هذا الحدث عنصرا الزمان والمكان، وفي الاتصال بواسطة اللغة، وفي إدراك كل من طرفي الاتصال للآخر، وفي حضور الذات في هذه التجربة المعاشة التي تفكر في ما

(١) ينظر: الظاهراتية وتأثيرها على أداء الممثل، علي عبد المحسن (ع١٠/ص٢٨٨). الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد الزين (ع١٦/ص٧٢).

(٢) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي (ع١٢/ص٢٢٩، ٢٣٠).

قيل، وفي ما يُقال، وفي الذي سوف يُقال، كما تضع تفسيرًا لكل هذا، وفي التفاعل بين الطرفين، ومن لوازم التفاعلية في الاتصال الشخصي (الإدراك) و(القصدية).

ويهتم بالكيفية التي تتجسد فيها الذات الإنسانية في التجارب، وبطبيعة العلاقة التي تربطها بالبيئة المحيطة بها، والمعاني المستخلصة من التجارب لمعرفة حقيقة الوجود الإنساني(١).

إن التجربة الإنسانية في الحياة تتشكل من خلال الوعي الذي يمثل طريقة لمعرفة المعنى المستخلص من التجارب، ويتمثل الوعي في الملاحظة والتفكير والتذكُّر(٢).

**(القصدية) و (الحدس):**

القصدية مصطلح مستخدم لوصف نشاط العقل في العالم الحقيقي، من أجل أن يترجم هذا النشاط إلى تجربة ذات معنى ودلالة، وهي صلب الظاهراتية وجوهر فلسفة هوسِّرل، وهي الخاصية التي تنفرد بها التجارب والخبرات المعيشة بكونها شعورا ووعيا بشيء ما(٣)، يقول عنها هوسِّرل: (الوعي دائما قصدي)، وتعتبر وسيطًا ما بين العارف والمعروف أو المدرَك والمدرِك؛ لغرض الوصول إلى فعل الإدراك، و قد ميَّز هوسِّرل للقصدية قطبين رئيسين هما: الجانب الذاتي للفعل القصدي، ويسميه (النوئزيس Noesis) أي الفعل المتجه نحو موضوع قصدي، والجانب الموضوعي للفعل القصدي، ويسميه (النوئيما Noema) أي الموضوع المشار إليه من خلال فعل قصدي(٤).

واهتمام الظاهراتية بالقصدية والوعي هو ما يميزها عن غيرها؛ لأنها تدرس الأشياء الحسية التي يدركها الوعي وتحللها، والمقصود بالأشياء الحسية كل ما يدركه الوعي إدراكًا

(١) ينظر: الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص٥١، ٥٣-٥٥، ٧٥).

(٢) ينظر: هوسِّرل ومعاصروه، فتحي إنقزو (ص٢١).

(٣) ينظر: الفينومينولوجيا باعتبارها العلم الكلي عند هوسِّرل، سماح محمد (ص٢٣٢). القصدية ومشكل تأسيس الفينومينولوجيا عند هوسِّرل، يوسف أحمد (ع ١٤٠-١٤١/ ص٧٣). معجم السيميائيات، فيصل الأحمر (ص٣٠٥، ٣٠٦). نظرية المعنى، أحمد الودرني (ص٩١).

(٤) ينظر: فينومينولوجيا الخطاب البصري، جواد الزيدي (ص١١، ١٢، ٦٨). الظاهراتية، جان ليوتار (ص١٥). الظاهراتية وتأثيرها على أداء الممثل، علي عبد المحسن (ع١٠/ص٢٨٩). القصدية ومشكل تأسيس الفينومينولوجيا عند هوسِّرل، يوسف أحمد (ع١٤٠-١٤١/ص٧). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد (ص٣٥٢، ٣٦١).

شعوريًّا لا إدراكا بالمعنى اللغوي كالأشجار والطيور، فمثلاً عالم النبات يلاحظ الشجرة ويصفها، فهو يصف شيئا محسوسًا ملموسًا، أما الظاهراتي فإنه يلاحظ الكيفية التي يصف بها عالم النبات الشجرة، ويكتب وصفًا لهذه الكيفية، فعالم النبات لا يستطيع وصف شيء إن لم تكن هناك شجرة، أمَّا الظاهراتي فإنه يتجاوز هذه المساحة الضيقة إلى وصف أية ظاهرة كونية أمامه(١).

ويُعبَّر عن ذلك الإدراك باللغة التعبيرية، ويسهم المنهج الظاهراتي فيها بكيفيته التي يصف بها الأديب (المتكلم)، وتبرز الكيفية التي تناول فيها الأديب وصف ظاهرة والكشف عنها في تعبيره، واللغة والأساليب البليغة هي الأداة الأساسية المستعملة في وصف الظاهرة بدقة؛ إذ إن الألفاظ ونظم الكلام إن لم يراع الدقة والبلاغة لم يفهم المراد ولم يؤثر التأثير المطلوب.

وترتبط القصدية بالكيفية التي ينجز بها العمل الأدبي؛ فقد استخدمت لدعم الجانب الموضوعي للنص الأدبي مما يعطي حضورًا مميزًا له ناجمًا عن استحالة فهم دلالة النص بمعزل عن قراءة ذلك النص بمعزل عن المتلقي؛ مما يدل على أن الظاهراتية نابعة من التأويل(٢).

وتظهر القصدية جلية في نص الجاحظ كما سيعرض في الجزء التطبيقي، وهو يكشف بقصد عن كيفية سلوكهم سلوكيات البخيل، وكيف تؤوَّل تلك الظواهر البادية منهم.

ويشمل القصد جميع أنواع الموضوعات: الخيالية والملموسة والمجردة والمثالية التي لا وجود لها والغائبة وغيرها، وكل واحد منها يحدد فعل قصد أو معنى يختلف بعض الشيء عن غيره عند الفاعل صاحب القصد، ومن الواضح أن النمط الأساس للقصدية يمكن أن ينتج نماذج قراءة شخصية شديدة واجتماعية مقصودة(٣)، ومن قراءة نص البخلاء تتضح قصديته لسلوك البخل والتشنيع بأصحابه والتنفير منهم.

---

(١) ينظر: الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص٣٢). الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد الزين (ع١٦/ص٧٣).

(٢) ينظر: الظاهراتية وتأثيرها على أداء الممثل، علي عبد المحسن (ع١٠/ص٢٨٩). المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي (ص٢٠، ٢٢).

(٣) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي (ص ١٧، ١٨، ٢٣، ٣٣).

**أمَّا الحدس:** فهو المقدرة على فهم الحقيقة مباشرة من دون استدلال منطقي تمهيدي[١]، وهو لفظ يشير إلى أنماط فكرية مختلفة، ويعني عمومًا المعرفة المباشرة وغير الانتقالية، وله أنواع، منها: (الحدس الميتافيزيقي) وهو الذي يعنينا هنا، فهو الذي يسمح بالإدراك المباشر لما يلي: لوجود معين وواقع معين، وللماهيات الخالصة وللبنى الكلية الخارجة عن الزمان، والمستقلة عن الظواهر الحسيَّة[٢]، ونلحظ ذلك في إدراك الظاهرة أمامنا ثم التعبير عنها ووصفها، والبلاغة تتمثل في معرفة الإجراءات الأسلوبية واللغوية المميزة للنص الأدبي، والتحليل البلاغي يستفيد من الظاهراتية بما تلح عليه من مقصدية وحدس في الإنتاج.

**الزمان والمكان في الظاهراتية:**

يرى هوسِّرل الزمان حضورية الوعي، وبالنسبة لـ(هيدجر) فإن كلا الزمان والمكان موجودان في العالم بدلاً من أن يوجد العالم في الزمان والمكان[٣].

والظاهراتية التفسيرية أو الهيرمونيطيقية -سيرد ذكرها- هي التي تعنى بتفسير الظواهر من خلال عنصري الزمان والمكان الفينومينولوجيين، والزمان عند الفينومينولوجيين هو ذلك الزمان المعاش في الذاكرة والوعي- كما أشرنا له آنفًا بحضورية الوعي- وهذا الزمان لازم من لوازم وجود التجربة المعاشة، فهو الوقت الذي قضاه الإنسان خلال مروره بتلك التجربة ومعايشتها، وليس المقصود من ذلك معرفة ساعة وقوع الحدث أو المدة الزمنية المحددة بالأيام أو غير ذلك، بل المقصود الحضور الزماني لهذه التجربة في الوعي أو الذاكرة.

كما أن المقصود بالمكان عندهم هو المكان المعاش، وليس المكان الجغرافي الشائع والمعلوم عند أتباع هذه الفلسفة، المكان الذي يبعث الإحساس والمشاعر المرتبطة بظاهرة معينة أو تجربة محددة في الوعي أو الذاكرة الإنسانية، فالأحداث مرتبطة عند تذكرها بمكان وقوعها (في البيت أو في المدرسة أو في الشارع مثلًا)، وعملية تذكر هذا الحدث أو هذه الظاهرة بتفاصيلها يتطلب تذكر المكان الذي وقعت فيه، وهذا التذكر يحتل مساحة معينة من

(١) ينظر: فينومينولوجيا الخطاب البصري، جواد الزيدي (ص١٤). معجم السيميائيات، فيصل الأحمر (ص٣٠٥).
(٢) ينظر: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد (ص١٥١).
(٣) ينظر: الزمان والمكان في الظاهراتية والصوفية، صلاح علي (ع١٤-١٥/ ٩،١٢،٤١،٦٧،٨٣،١١٣،١١٤).

وعي الإنسان عند محاولته تفسير هذا الحدث أو تلك الظاهرة لتكوين معنى تفسيري لها[١].

**ارتباط الفينومينولوجيا بالهرمينوطيقا (التأويلية):**

ترتبط الفينومينولوجيا بفن التأويل عضويًّا ووظيفيًّا حيث يلتقيان من خلال المفاهيم التي يلتقي فيها هذان المنهجان بالأنطولوجيا والميتافيزيقا عمومًا، وهي: التجربة المعاشة في صلب الحاضر الحي، وفهم الذات وتجربة الآخر[٢]، وهما تتعالقان في علاقتهما بالأنطولوجيا (علم الوجود)، وذلك في كون كليهما منهجًا للأخرى، والبحث الفينومينولوجي يقتضي قيام تأويل للموجود في اتجاه وجوده[٣]، وقد أكدت الظاهراتية على الصور الذهنية المرتبطة بقدرة القارئ على التخيل[٤].

والبلاغة تعتمد على التأويل في التخيل والتصوير والوصف، ومن هنا كان الوصف التأويلي في الظاهراتية أداة من أدواتها.

أمَّا جوهر الفينومينولوجيا التفسيرية أو الهيرمونيطقية في تفسير التجارب الإنسانية المعاشة فيقوم على أربعة عناصر، هي: المكان الفينومينولوجي، والزمان المعاش (وقد سبق تناولهما)، والآخر المعاش (التجربة المعاشة متعلقة بشخص آخر تتفاعل معه، وتكتسب من جراء هذا التفاعل معنى لوجودها)، والجسد المعاش. وهذا يشير إلى الحقيقة الفينومينولوجية التي تقول أن الإنسان متجسد في هذا العالم بجسمه.

وهذه العناصر هي عناصر مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وهو مكان الكلام وزمانه وحال الأشخاص، والصدق في التعبير مع تأثيره أكبر دليل على البلاغة، وكان المنهج الظاهراتي يراعي مكان الحدث وزمانه ومنهما تحصل المطابقة لمقتضى الحال؛ فهذه ركائز تنطلق منها الفينومينولوجية الهرمونيطيقية لتفسير الظواهر الإنسانية لإثبات وجودها[٥].

---

(١) ينظر: العقل في الفلسفة الظاهراتية، محمد البشر (ع٨/ ص٣٠). الفينومينولوجيا: ماهيتها ونظريتها في الفلسفة، محمد البشر (ع١٥٣/ص٩٠).

(٢) ينظر: الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد الزين (ع١٦/ص٨٢،٨٣)

(٣) ينظر: إشكالية العقل والوجود في فكر ابن العربي بحث في فينومينولوجيا الغياب، أحمد الصادقي (ص٧١).

(٤) ينظر: الظاهراتية وتأثيرها على أداء الممثل، علي عبد المحسن (ع١٠/ص٢٩١).

(٥) ينظر: العقل في الفلسفة الظاهراتية، محمد البشر (ع٨/ص٣٠).

**الفينومينولوجيا وعلم الدلالة:**

يبدو أن مسألة المعرفة كيفًا ومسألة الفهم معنًى ليست مسألة تفيض بها الأشياء بذاتها، ولكنها مسألة إنسانية ذات بعد دلالي يتحول العالم بها إلى ظاهرة ثم تتحول إلى معنى.

وإذا عدنا إلى التراث العربي، وجدنا عند بعض أصحابه مَن حسم المسألة لصالح الإنسان بوصفه ينبوعًا للمعرفة كما فعل الجاحظ، ومن أجل ذلك استخدم اللغة أداة، فناب بها عن نفسه ليعقلها، وناب بها عن العالم ليدركه.

والدلالة في إطار فينومينولوجي عند الإنسان هي بنية لغوية تنتظم فيها ظواهر العالم، وخضوع الظواهر للبنية اللغوية، وتحولها إلى بنية دلالية يجعلها تظهر فيها على محورين:

الأول: وتظهر فيه -بوصفها بنية دلالية- عبر قيم صوتية وتركيبية تميزها عن غيرها.

الثاني: وتظهر فيه -بوصفها بنية لغوية- نظامًا لشكل العلاقات من جهة، ونظامًا لوظائفها من جهة أخرى، وتصبح الفينومينولوجيا معها فلسفة يتحدد موضوعها في العودة إلى الوجود من خلال الرؤية اللغوية له[1].

وكلا المحورين يتصلان اتصالًا مباشرًا بالبلاغة العربية في الكلمة في المقامات المختلفة.

**الظاهراتية في مجال الأدب:**

تركز الفينومينولوجيا في مجال الأدب على الفاعل، وتجلّيات وعيه للعالم في النص؛ فتهمل السياق التاريخي للأثر الأدبي ولصاحبه وللظروف الحافَّة بإنتاج الأثر وقراءته.

وتقرأ النظرية الفينومينولوجية النص قراءة داخلية، لا تكترث فيها لأي سياق، ويقع اختصار النص في وعي الكاتب، ويُنظر إلى مظاهر النص الأسلوبية والدلالية على أنها عناصر عضوية مجموعة في فكر الكاتب، وعلينا أن نرجع فقط إلى مظاهر الوعي كما تتجلى في الأثر ذاته، دون الرجوع إلى الكاتب وحياته وتاريخه.

كما تركز على الصيغة التي نمسك بها ما يتصل بالفاعل الكاتب زمانًا ومكانًا، وعلاقاتٍ مع الآخرين، وإدراكًا حسِّيًّا للأشياء المادِّية؛ لغرض إعادة إنتاج المعاني الكامنة فيه مع

(١) ينظر: موضوع علم الدلالة منظور فينومينولوجي، منذر عياشي (ع٦/ص٢٢).

استبعاد شبه كلِّي للرؤى الذاتية ولكل أشكال التقويم التي يمكن أن تصدر عن القارئ[١].

ويستفيد التحليل الأدبي البلاغي من الظاهراتية بوصفه منهجًا نقديًّا حديثًا، بما تلح عليه من القصدية والحدس في الإنتاج والتأويل الأدبي، خاصة عند (ب. ريكور)[٢].

ويرى (إنغاردن) أن العمل الأدبي يقوم على أفعال قصدية من قبل مؤلفه تجعل من الممكن للقارئ أن يعايشه بوعيه بوصفه قارئًا، وتعني المعايشة هنا نوعًا من التداخل عبر التجربة القرائية بين المؤلف والقارئ، ذلك أن النص لا يأتي كاملا من مؤلفه، بل هو مشروع دلالي وجمالي يكتمل بالقراءة النشطة التي تملأ ما في النص من فراغات، وقد أثرت هذه الآراء في ما بعد على نشوء ما يعرف بنظريات الاستقبال واستجابة القارئ[٣].

**علاقة الظاهراتية بالمناهج الأخرى (الوجودية، ونظرية التلقي، والبنيوية):**

- **علاقة الظاهراتية بالوجودية:**

ظهرت في ملاحظات هيدجر، وفي كتاب سارتر (الوجود والعدم)، فالظاهراتية تقدِّم وصفًا للأعماق، وتعرض الجوهري الوجودي بمنهج علمي لدراسة الوجود البشري[٤]، وتهتم مع الوجودية بالذات الفردية والشعور الخاص باعتبارهما مبدأ كل إدراك ومعنى[٥].

- **علاقة الظاهراتية بنظرية التلقي:**

للظاهراتية علاقة بنظرية التلقي، فقد ربطها كل من (سارتر ودوفرين وانغاردن) بقصدية القراءة، لكن دراسة (رومان) كانت الأكثر قربًا من تلك النظرية، فقد قدم دراسة ظاهرية عن العمل الأدبي واستجابة القارئ، ودعا في كتابه (الخبرة بالعمل الفني الأدبي) إلى تحليل العمل الأدبي من داخله، وإلى أنه ينبغي أن يكون هو مدار البحث، ويتبع ذلك التحليل

(١) ينظر: نظرية المعنى، أحمد الودرني (ص٩٢،٩٣).

(٢) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش (ص١٤٤).

(٣) ينظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي (ص٣٢١).

(٤) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي (ع١٢/ص ٢٢٤).

(٥) ينظر: الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص ٨٤). الفينومينولوجيا: ماهيتها ونظريتها في الفلسفة، محمد البشر (ع١٥٣/ص ٨).

البلاغي.

وقد ناقش (انغاردن) واقع تأليف العمل الأدبي محللًا المعرفة الأدبية على أساس من قصدية الكيان الإبداعي الصرف، ثم انتقل إلى أثر العمل في وعي القارئ، وقد فصل القول في جميع المؤثرات التي يشتمل عليها النص الأدبي، التي تشكل الاستجابة الواعية، وهي بمجموعها لا تخرج عن حدود اللغة أو المعنى المترتب عليها، وهذا يؤدي بالضرورة إلى تشكيل بنية يقوم القارئ بإكمالها، وهنا يبدأ دور القارئ الذي يحاول ملء الفراغ في العمل الأدبي(١).

كما يحلل القارئ النص تحليلًا بلاغيًّا أو أدبيًّا يبرز أسلوب الكاتب والمنهج الظاهراتي فيه، وتلقي الجاحظ للظواهر المشيرة إلى البخل وتصوير البخيل بأسلوب بليغ وفنٍّ بديع لهو أكبر دليل على ارتباط الظاهراتية بالتلقي كما سيظهر في النص التطبيقي.

وتتمثل القراءة الظاهراتية في القدرة على مزاولة النشاط الإدراكي القادر على استيعاب طبقات عدة في وعي المتلقي، هي: (طبقة صوتيات الكلمة، وطبقة الموضوعات المتمثلة، وطبقة وحدات المعنى، وطبقة المظاهر التخطيطية)(٢)، والقارئ يتفاعل في التحليل البلاغي مع النص تفاعلا تأويليًّا تحقيقيًّا بقصد الوصول إلى الدلالة وإعادة بنائها من جديد(٣).

والنتاج الأدبي في هذه النظرية له حياة خاصة به يعيشها كل فرد في قراءته له(٤).

إن النظرية الظاهراتية في الفن توجه الانتباه كله إلى أن المرء عليه أن يراعي الأفعال المضمنة لا النص الفعلي فقط عند تلقيه، وهذا ما يُراعى أيضًا عند دراسة بلاغة النص في نظمه وأساليبه وفنونه، ويرى (ستيرن) وجوب رؤية العمل الأدبي بالطريقة التي تحرك خيال القارئ بهدف أن يفهم الأشياء بنفسه، فالقارئ بتأسيسه العلاقات الداخلية بين الماضي والحاضر والمستقبل يجعل النص يكشف عن تعددية الروابط فيه، وهي منتج عقل القارئ

(١) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي (ع١٢/ص ٢٢٥).
(٢) ينظر: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، بشرى صالح (ص٢٦).
(٣) ينظر: مناهج النقد العربي الحديث المعاصر، جميل حمداوي (ص٤٣).
(٤) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي (ص ١٩).

الذي يعمل على مواد النص الخام[١]؛ فتبرز جماليات النص في التحليل البلاغي بواسطة هذا المنهج.

ونظرية التلقي مشروع متكامل يرتكز على عدة حقول فلسفية تشمل التأويلية والظاهراتية والبنيوية والسيميائيات وغيرها[٢]، أي أننا في الدرس البلاغي الجديد نحتاج لها ولغيرها لتحقيق الفائدة المرجوة بشكل متكامل.

- **علاقة الظاهراتية بالبنيوية:**

لقد تأثر (رومان جاكبسون) بـ (هوسِّرل) في تحديد العلاقة بين اللسانيات وعلم النفس، لكنه يتقاطع مع (هوسِّرل) في عدم اتباعه الوحدات المنهجية التي سقطت فيها الظاهراتية تدريجيًّا؛ فاللسانيات البنيوية تبحث في ظواهر تسمح بتطبيق مستمر لمناهج حرَّمتها الظاهراتية مثل الاستقراء التجريبي وغيره.

لقد توصل (جاكبسون) إلى مقاربات ظاهراتية للإنسان؛ فأساس البنيوية اعتبار بنيات الإدراك الحسي، ولكن دراستها تهتم بما يخص معانيها، أي بالترابط بين المعطيات الحواسية ومعطيات المعنى؛ لأن الحواسية لا تنفصل عن معناها، والاعتبارات البنيوية والوظيفية لا يمكن فصلهما، ولقد انطلقت ظاهراتية (جاكبسون) البنيوية أو بنيوية الظاهراتية من فهمه للأصوات وتعديله من البنيوية، وتخفيفه من تزمت الظاهراتية؛ فوصل إلى مرحلة وسط أفادت المنهجين[٣]، وكلاهما مهم للآخر؛ فالتحليل البنيوي والدلالة يعتمدان على ما هو ظاهر[٤].

**من خلال العلاقات السابقة بالظاهراتية تظهر لنا أبعاد المنهج الظاهراتي، وهي:**

- الظاهراتية التكوينية، ظاهراتية هوسِّرل الأولى.
- الظاهراتية الوجودية (الماهوية) وتقدم وصفًا للماهيات وتبحث في الوجود البشري.

(١) ينظر: عمليات القراءة مقاربة ظاهراتية، فولفجانج إيزر (ع٤/ ٣٤٥، ٣٤٧).
(٢) ينظر: الرواية من منظور نظرية التلقي، محمد مساعدي (ع٣٢/ص١١١).
(٣) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي، (ع١٢/ص٢٢٥، ٢٢٦).
(٤) ينظر: ملاحظات نحو فينومينولوجيا السرد، كريستن ميتز، (ع١/ص٣٩).

- الظاهراتية الهيرمونيطيقية أي التأويلية التي تتعدى الوصف الخالص والتفسير اليسير لتنتقل إلى ما يهيئه الخيال حول النصوص الأدبية[١]، وهو ما يعنينا في التطبيق في الدراسة.

**الخطوات المنهجية للبحث الظاهراتي:**

يقوم المنهج الظاهراتي على أربع خطوات رئيسة تتضمن مجموعة من الإجراءات المنهجية:

١- صياغة المشكلة البحثية (معرفة الظاهرة المراد دراستها)، ولنفترض أن الظاهرة موضوع الدراسة هي (الشعور بالخطيئة) بوصفها ظاهرة إنسانية يحاول الباحث الظاهراتي التعرُّف على البناء الجوهري والمعنوي لها، وفهمها بوصفها حقيقة من حقائق الوجود الإنساني، والإجراءات التي تندرج تحت هذه الخطوة هي:

الاستدلال على المشكلة البحثية (يبين كيف توصَّل إلى الظاهرة موضوع الدراسة)، فيقول-مثلا- إن تفاعل الفرد في حياته اليومية غني بالمعاني التي تستحق الدراسة والتحليل لمعرفة طبيعة هذا التفاعل، وإن تجربة (الشعور بالخطيئة) التي يمر بها الإنسان هي ظاهرة تتضمن حقيقة من حقائق الوجود الإنساني التي تدفع لمعرفة معنى الظاهرة في الوعي الإنساني.

علاقة الظاهرة بالتفاعل مع الآخر، وهنا يبيّن علاقة ظاهرة (الشعور بالخطيئة) بالتفاعل مع الآخرين، ويسوق مبررًا لهذه العلاقة، كأن يقول مثلًا: إن هذه الظاهرة هي نتيجة من نتائج التعامل مع الآخر (فردًا أو جماعة)، وهذا التعامل التفاعلي يستلزم تفكيرًا وشعورًا وعملًا.

الصياغة النهائية لسؤال الدراسة، أي وضع سؤال جوهري واحد للدراسة ذي علاقة وثيقة بالظاهرة موضوع الدراسة، فيكون السؤال على المثال السابق: ما مفهوم ظاهرة (الشعور بالخطيئة) بوصفها تجربة إنسانية؟ وما البناء الجوهري للمعاني التي تحملها؟

٢- أداة البحث، وتتضمن جملة من التساؤلات المتعلقة بالظاهرة موضوع الدراسة، ولا بد أن تكون هذه التساؤلات كلها تدور حول محاولة البحث عن إجابة شاملة للتساؤل

(١) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي، (ع١٢/ ص ٢٢٦).

الأساس للدراسة، وأداة البحث في المنهج الظاهراتي لها سمة تجريبية تقوم على الملاحظة والاختبار، فهي تساعد على تقديم معلومات وصفية عن الظاهرة موضوع الدراسة، عن طريق أسئلة مكتوبة أو شفهية حوارية أو بكليهما معًا.

٣- تحليل المعلومات وتفسيرها بغية الوصول إلى فهم كامل للبناء المعنوي للظاهرة، ويتحقق ذلك من خلال الإجراءات التالية:

استخلاص المعاني المرتبطة بالتجربة (الظاهرة)، ومحاولة الربط بين الموضوعات الرئيسية التي وردت، وما يندرج تحتها من موضوعات فرعية ذات علاقة وثيقة في ما بينها، الربط بين الموضوعات الرئيسية بعبارة أو جملة وصفية عامة مستقاة من وجهة نظر العينة التي عاشت التجربة كما فهمها الباحث.

توضيح البناء الوصفي للظاهرة إذا كانت الموضوعات تحتاج إلى مزيد تجلية وإيضاح لمعناها.

٤- استخلاص النتائج وعرضها، من أجل التقويم أو النقد، ويتبع من أجل ذلك خطوتين:

التركيز على المعنى الجوهري للموضوعات المصنفة مسبقًا كما قدمته عينة الدراسة.

التركيز على محاولة البحث عن مفهوم عام للظاهرة المدروسة من وجهة نظر ظاهراتية، وذلك بناءً على السياق التجريبي لوصفها الذي قدمته عينة الدراسة، فالغاية من مرحلة استخلاص النتائج هي معرفة المعاني المتعلقة بالتجربة الإنسانية التي شارك فيها كل فرد من عينة الدراسة، والوقوف على حقيقة هذه التجربة[١].

وبرز هذا المنهج لدى الجاحظ في دراسته لظاهرة البخل، حيث تناول البخيل، وعلاقته وتفاعله مع الآخر، وصاغ أسئلة الدراسة من خلال التجربة الإنسانية، وكانت التساؤلات على لسان البخيل ومواقفه التي يعيشها هي أدوات الجاحظ في كتابه، حيث درس تلك الظاهرة المتفشية، وحلَّل المعلومات المتعلقة بها وفسَّرها، ووصل بالمتلقي إلى فهم كامل لها

(١) ينظر: الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني، محمد البشر (ص٣٩- ٤٣).

من خلال استخلاص المعاني وتجليتها من المواقف المرتبطة بالبخيل.

**خصائص المنهج الظاهراتي:**

هو علم منهجي يستخدم أساليب محددة لطرح تساؤلات البحث، وله طرق خاصة تساعد على التفكُّر والتأمُّل والتركيز، والوصول إلى المعرفة عن طريق الحدس والبديهة، وبحوث الظاهراتية صادقة؛ لأنها تحاول أن تبيِّن بوضوح بنية المعاني المتجسدة في التجربة الإنسانية، وهو منهج ناقد لذاته؛ لأنه باستمرار يختبر وسائله وغاياته ليتطور، وهو منهج ذو علاقة بالآخر، فهو يحتاج إلى القارئ من أجل تطوير علاقة الحوار بينه وبين الظاهرة (موضوع الدراسة)، ثم إضافة نوع من المصداقية إلى وصفها[١].

**المبحث الثاني: الجانب التطبيقي**

**(خطاب سردي للجاحظ من كتابه البخلاء)**

قال الجاحظ: "كان للغزَّال قطعة أرض قدام حانوتي، فأكرى نصفها من سمَّاك يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء، قال: وكان الغزَّال أعجوبة في البخل، وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمه. فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم. فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوافة بحبة وأثبت عليها فلسًا في حسابه، فإذا أراد أن يتغدى أخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف، ثم عض عليه، وربما فتح بطن الجوافة فيطر جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينضم بطنها طلب من ذلك السَّمَّاك شيئًا من ملح السمك فحشا جوفها لينفخها وليوهم أن هذا هو ملحها الذي ملحت به، ولربما غلبته شهوته فكدم طرف أنفها وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته، وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخر لقمة ليطيب فمه بها ثم يضعها في ناحية، فإذا اشترى من امرأة غزلاً أدخل تلك الجوافة في ثمن الغزل من طريق إدخال العروض وحسبها عليها بفلس فيسترجع رأس المال ويفضل الأدم"[٢].

(١) المرجع السابق (ص٣٧).

(٢) البخلاء، الجاحظ (٢/٣٩، ٤٠).

الشرح:

فأكرى: أجَّر، آجرته الدارَ أكريتُها والعامة تقول وأَجرْتُه.

الكراء: الأُجْرَةُ والإِجارَةُ والأُجارة.

جوافة: الجُوافةُ بالضم والتخفيف ضرب من السمك وليس من جَيِّدِه.

فكدم: قيل هو العَض عامة كدَمه يَكْدُمُه ويَكْدِمُه كَدْمًا وكذلك إذا أَثَّرت فيه بجديدة.

الأرنبة: طرف الأنف[1].

من أطرف الأمور أن ظاهرة البخل قد ظهرت في الحضارة الإسلامية، في وقت كانت أملاك الدولة الإسلامية قد اتسعت، وثروات أهلها قد تزايدت، وتسابق الأمراء وشخصيات المجتمع الراقي على إقامة الولائم، وتبادل الحفلات، والواقع في مثل هذه البيئة وحدها يمكن ملاحظة تلك الظاهرة، وهذا ما فعله الجاحظ (المتوفى سنة٢٥٥هـ) في كتابه الرائع (البخلاء).

لقد صوَّر الجاحظ أحوال البخلاء بطريقة كاريكاتيرية، وسجَّل نوادرهم، وسخر بهم؛ لأن التصرفات العجيبة التي يقوم بها البخلاء لا يمكن تصورها إلا في إطار ساخر قد يثير البسمة على شفاه السامعين، ولكنه في الوقت نفسه يولِّد في نفوسهم شعور الاشمئزاز من البخل دافعًا وسلوكًا.

ولا شك في أن البخل خلق ذميم، وهو مناقض تمامًا لطبيعة الإنسان الذي يعيش في جماعة يحتاج إليها كما تحتاج هي إليه، ومن المعروف أن العطاء الذي يقدمه الأفراد للمجتمع هو الذي ينهض به، ويحوله من مجتمع أناني إلى مجتمع متضامن قوي.

إن محاولات الأفراد في جمع الثروة لا بأس بها، لأنه من مجموع هذه المحاولات يتكون النشاط الاقتصادي في أي مجتمع مزدهر، وإنما يأتي الضرر من تحول جمع الثروة إلى هدف في حد ذاته، وهذا ما نجده بوضوح لدى البخلاء، وهو الأمر الذي كشف عنه الجاحظ بأسلوب بالغ السخرية لكي يصل تأثيره إلى قلوب الناس جميعا؛ ليتنبهوا لتلك الظاهرة

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة جوف (٣٧/٩) ومادة كدم (٥٠٩/١٢) ومادة أرنب (٣٥/١). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة كرى (٧٨٥/٢).

النشاز، ويتجنبوها قدر الإمكان، وهذا ما سنوضحه في النص السردي الذي أمامنا[١].

**(تحليل النص):**

التقديم: النص سردي، (قصة قصيرة) تتسم بالإيجاز، حكى فيها الجاحظ قصة أحد البخلاء من كتابه الذي عنونه بهذا العنوان، وقد شكَّل العنوان نصًّا موازيًا للنص الفعلي الذي جاء سرديًّا يحكي بدقة وإيجاز القصة، ويصوِّر ظاهرة البخل المتمثلة في سلوكيات أحد البخلاء وأفعاله.

وقد اختار عنوان الكتاب الذي جمع فيه كل قصصه عن البخلاء من خلال رصدهم ومعايشتهم في تجارب حياته؛ ليعلِّق على نوادرهم بسخرية حادة، ويركِّز على كل ما يحط من قدرهم، ويسقط مروءتهم، وهذا النص نموذج لذلك حيث برزت ملامح الظاهراتية في تشكيل نص الجاحظ الأسلوبي وتصويره للبخيل، والدراسة تحاول تطويع الظاهراتية لروح البلاغة العربية في نص الجاحظ؛ لنُقارب البلاغة القديمة بقراءة جديدة، ونُعيد إنتاجها في صياغة جديدة توافق التحولات الحضارية والثقافية؛ فالخلفية الثقافية في النص المدروس كانت هي المحرك لتشكيل الصورة وبلاغة التعبير.

الموضوع: البخل على النفس.

بنية النص:

يتكون النص من سبع جمل قصصية:

ج ق ١: إطار الحكاية (الأرض، المنزل، البخيل، الفضاءات [السَّمَّاك، وامرأة الغزل، والجوافة، والرغيف، والغزل

ج ق ٢: الغزَّال البخيل وتأجير الأرض للسَّمَّاك.

ج ق ٣: عادات البخيل في تناوله للطعام.

ج ق ٤: تحايل البخيل على السَّمَّاك وامرأة الغزل واستغلالهما.

ج ق ٥: غداء البخيل بسمكة الجوافة، وما جرى أثناء ذلك.

ج ق ٦: الاستماتة في الحفاظ على مصدر غذائه ووسيلة تحايله.

(١) ينظر: ظاهرة البخل عند الجاحظ، حامد طاهر، (ع٩/ص ٢٠١-٢٠٩).

ج ق ٧: الانتهاء ببقاء الحال واستمراره على ما كان عليه.

وكانت الجمل موجزة، فيها حسن انتقال يبرز حبكة القصة، وترتكز القصة كلها على نظم هذه الجمل وتركيبها، والوصل أو الفصل بينها، ويبيّن مرتكز القصة الموجزة وأهم أحداثها وأشخاصها.

**مستويات النص (الحكاية، الخطاب)**

**مستوى الحكاية:**

نجد في الحكاية مع قصرها بداية ووسطا ونهاية مفتوحة تشعر باستمرار هذا البخل، والباعث الرئيس الذي جاء في كل أحداث الحكاية وجملها القصصية (البخل)؛ مما جعل الجاحظ يقيم القصة على الوصف الدقيق لهذه الظاهرة التي قال فيها: (كان أعجوبة في البخل) ويظهر ذلك في ما يلي:

- كيف كان يجيء من المنزل ومعه الرغيف في كمه؟
- كيف اعتاد الأكل دون أدم؟
- كيف حصل على الجوافة من السَّمَّاك واستغله؟
- كيف كان يأكل من الجوافة ويحافظ عليها في نفس الوقت؟
- كيف تحايل على امرأة الغزل الضعيفة؟

وفي النص السردي استباق ظهر في قوله (كان أعجوبة في البخل)، ثم فسَّر ذلك بالظاهرة التي تبيّن ذلك، فكأنه سرد الحدث مقدَّمًا ثم رجع ووصف ذلك بدقة وتفصيل فكانت الدقَّة واضحة في الوصف والألفاظ والدلالات، وهو إطناب في ظل الإيجاز لم يخل أحدهما بالآخر.

فالظاهرة السلوكية تصرّح بما سكت عنه الكلام، وتصف ببلاغة البخل؛ كبلاغتها في التعبير عن النفس وسلوكها، وجاء الوصف والقص على الحقيقة والواقع بأسلوب بليغ بديع اندمج مع أسلوب القصص والاحتجاج في مكان له أثر بليغ.

ومن الوظائف الملحوظة في بنية الحكاية:

- **الحرمان:** حرمان البخيل لنفسه من الحياة والطعام.
- **ارتكاب المحرم:** ويتمثل في ظلم السَّمَّاك المستأجر عنده، واستغلاله، والتحايل على المرأة الضعيفة بعدم دفع المال المستحق لها.
- **السؤال:** طلب الملح من السَّمَّاك، والغزل من المرأة.
- **الخديعة:** خداع البخيل نفسه وهو يتغذَّى على الجوافة، وخداعه للسَّمَّاك وامرأة الغزل.
- **رد فعل البطل:** الحرص الشديد والتمسك بهذه العادة.
- **الانتقال عبر المكان:** من الأرض إلى السَّمَّاك.
- **الصراع:** المتمثل في مغالبته لشهوته للطعام وكدمه لأنف السمكة، ومحاولته الحفاظ على السمكة حتى لا تنهك.
- **التوازن:** وظهر في بداية القصة وآخرها عندما عاد حال البخيل إلى ما كان عليه في البداية قبل الأزمة التي حلَّت به من اشتهاء الطعام وحصوله عليه.

هذه الوظائف التي أبرزها الوصف الظاهراتي كان لبلاغة الجاحظ وقدرته على التعبير والتصوير بألفاظه وتراكيبه وأسلوبه البلاغي الدور الأهم في بيانها والكشف عنها.

ففي وظيفة الحرمان مثلًا أبرز الجاحظ حرمان البخيل لنفسه من الحياة والطعام من بنية الحكاية كاملة.

فصورته وهو يجيء من منزله ومعه رغيف في كمِّه، واختيار الجاحظ في نظمه وتأليفه بتعبير المضارع (يجيء) الدال على الاستمرار وتجدد الحدوث، واختياره الرغيف دون غيره من الأطعمة؛ كل ذلك يشير إلى أنه لا يملك إلا الأقل كمية وكلفة بدلالة التنكير في لفظ (رغيف)، ودل حرف المعية (مع) على أنه حال دائم كان يتصف به، وأغلب أفعال الوظائف في بنية الحكاية كذلك (يجيء-يأكله-يتغذى-يطر).

واختياره للألفاظ الدقيقة في تصوير سلوك البخل ووظائف حكايته من حشو السمكة وكيف يطر جنبيها، ويكدم أنفها وغير ذلك، كلها ألفاظ مصورة تصويرًا حقيقيًّا لما هو من خيال الجاحظ، فقد برع في إظهار ما في خياله بألفاظ دقيقة وأساليب بليغة موثرة.

**مستوى الخطاب:**

وتظهر فيه بنية ظاهراتية كبرى (ظاهرة البخل) في الخطاب الكلِّي، وفيه بنى عديدة فرعية.

**الظاهراتية الرئيسية:** ظاهرة البخل، وتظهر من خلال التسريد عبر المستويات أو المقومات الفرعية التالية:

**أولًا: التتابع الحدثي:**

في سرد الظاهرة ووصفها بدقة متناهية من خلال تنقل البخيل بين منزله وأرضه، ثم أخذه الجوافة ومحاولة الأكل منها مع الحفاظ عليها ثم استخدامها مرة أخرى من أجل شراء الغزل، وكذلك التتابع الحدثي لظاهرة أكل السمكة حيث تتبَّع الجاحظ مراحل وظواهر تعامل الغزَّال مع الجوافة منذ أن أخذها إلى أن أعاد جمعها والتصرُّف فيها، يقول: "أخذ الجوافة، فمسحها، فحشا، ثم عض، وربما فتح، فيطر، ...".

التتابع الحدثي موجود وظاهر أمامنا في قصة البخيل التي مثلت لنا حلقة واحدة مغلقة تدور أحداثها حول البخيل وترتبط به، ونلحظ التتابع أيضًا في سرد أفعال الأحداث وتتابع الجمل في الحكاية تتابعًا جاذبًا سلسًا.

**ثانيًا: الوحدة التيمية:**

التي تضم الأحداث الظاهرة كلها تحت شخص فاعل واحد هو (البخيل)، ونرى الأحداث والشخوص الأخرى في القصة تنخرط وتتفاعل في مسيرة هذا الفاعل على الصعيد السلبي (ما لقيه البخيل من مشاق في سبيل الحصول على ما تشتهيه نفسه، وما فعله للحفاظ على الطعام كي لا يُنهك)، وعلى الصعيد الإيجابي بما حققه البخيل من أجل نفسه، وهكذا كان البخيل وكانت ظواهر بخله في القصة المحور الناظم لكل الأحداث، والمحرِّك لها ولنظم الألفاظ والتراكيب في بنية الحكاية، والظاهرة لها دلالات تكملها العبارات البليغة الواضحة السهلة ودقة اختيار الألفاظ والتراكيب والجمل ببناء أكثر إحكامًا وانسجامًا في السياقات.

**ثالثًا: المسندات المتحولة:**

ونلاحظها في المراحل التي مرت بها القصة، فالتوازن ظاهر في بدايتها، عندما حكى الجاحظ لنا حال البخيل وما كان عليه دومًا، ثم انتقل إلى مرحلة أخرى تمثل تأزمًا في الشخصية عندما شعر البخيل بحاجته للغداء الذي اشتهته نفسه، وتظهر الأزمة في ما مرَّ به البخيل من معوقات ومشقة للحصول على الطعام، وتشتد الأزمة ويزداد الصراع بينه وبين سمكة الجوافة من أجل الحفاظ عليها بعد فراغه من الأكل منها، وتنتهي هذه المرحلة ليعود التوازن من جديد، ويعود حال البخيل إلى ما كان عليه دون أي خسارة ببيعه السمكة لامرأة الغزل.

**رابعًا: حدث الفعل:**

نلاحظ في القصة الاندماج في وحدة الفعل نفسه، فالأحداث منتظمة تحت حدث رئيسي يشكِّل كلًّا متكاملا، ونلاحظ أحداثًا وأفعالًا تتكرر في القصة: المجيء للسَّمَّاك، حمل الرغيف في الكم، عدم أكل الإدام أكثر الدهر أي أن حرمانه لنفسه من أكل الأدم مكرر، وتكرار فعل الاستغلال والتحايل مع المرأة بعد السَّمَّاك، والتكرار النابع من صيغة الأفعال التي صاغها بفعل مضارع (يجيء-يأكله-يتغدى-فيطر-فيسترجع-يفضل).

كما أن الأحداث في القصة متسلسلة، لها بداية (الغزَّال الذي يعيش حياته، ويؤجِّر أرضه، ويأكل دومًا بطريقة معتادة، ولا يخسر شيئًا)، ومرحلة وسطى تصور التطور والأزمة (حاجته إلى طعام أو أدم بجانب الرغيف، وغلبة هذه الحاجة حتى سعى للحصول على سمكة الجوافة بالتحايل، وتتطور الأزمة عند تصوير الصراع الذي كان بينه وبين السمكة من أجل إشباع رغبته في الأكل منها، والمحافظة عليها في الوقت نفسه)، ثم مرحلة النهاية وهي الخلاصة التي قدمت لنا فائدة، وهي: أن البخيل لن يتغير حاله، وأن آفته آفة عظيمة لا يمكن التغلب عليها.

وهكذا كانت المراحل (البداية، والوسط، والنهاية) هي السبب في حبكة القصة المروية، فقد كانت الأحداث المروية ضمن حدث رئيس يتألف منها (البخل)، ويحصل عن غياب أحدها مساس بالحكاية كلها.

**خامسًا: السببية القصصية:**

نجد الأحداث مترابطة سببيًّا في القصة، فقد كان الذهاب إلى السَّمَّاك بعد شعوره بالجوع، واشتهائه على الغداء الأدم مع الرغيف، وحصوله على ذلك بعد ذهابه إلى السَّمَّاك، والمشهد الذي كان بينه وبين سمكة الجوافة أثناء الغداء، وما استطاع ذلك إلا بعد أخذه السمكة من السَّمَّاك، وما كان ليستطيع الحفاظ على الجوافة من أن تنهك بعد أن تناول منها ما شاء إلا بعد حصوله على الملح من السَّمَّاك...، ممَّا يظهر لنا أن الجمل القصصية منبثقة من بعضها البعض، وبينها توليفة متماسكة لا تنفك حتى وصلت القصة بأحداثها إلى العقدة (تعامله مع الجوافة)، وصوَّر لنا حدَّة الصراع القائم بينه وبينها من أجل أن يطعم نفسه ويحافظ على هذا الطعام في الوقت نفسه، ثم يصوِّر الجاحظ الحل في طريقة حفاظه على السمكة، ومن ثم بيعها والاستفادة منها مرة أخرى، وهذه هي طريقة البخيل في إيجاد الحل.

**سادسًا: التقويم النهائي:**

استمرار هذه الظاهرة وهذا التصرف من التحايل والاستغلال، مما يؤكد شدة تفشي ظاهرة البخل وخطورتها على المجتمع، وهذه الظاهرة تعظنا بما فيها من تصوير مقزز لحال البخيل مع نفسه ومع أهله ومع الناس، ومن خلال الدرس الوصفي الذي صوره لنا في القصة تتقزز النفس من هذا البخل وتشمئز منه.

**بعض الظواهر في النص:**

- **الظاهرة الكبرى في النص:** البخل ووسائله وصوره، أما الظواهر الفرعية في النص، فربما نلمحها في ما يلي:
- **الظاهراتية الزمانية:** وتمثل الإطار الزمني العام زمن البخل الذي يعم المجتمع في وقت الجاحظ ووقتنا عند قراءتنا لنصه؛ مما قد يجعلنا نستحضر بقراءته مشاهد وظواهر وصور أخرى للبخل، وركز فيها على الزمن الماضي (كان)، الذي يدل على أن الظاهرة متسعة في وقته، وأن الحال لم يتغير عما هو عليه في أوقات تالية، ولكن في الزمن الظاهراتي نجده

زمن الظاهرة المعاشة فقط: (زمن المجيء من المنزل، أخذه الجوافة من السَّمَّاك، وزمن مسحه على الرغيف ...)، والزمن أيضا يتصل هنا بالراوي وهو الجاحظ، وبوصف الظاهرة، وبزمن تلقي هذا النص وهو زمننا الآن في قراءة النص.

- **الظاهراتية المكانية:** وتبرز في مكان ظاهرة البخل وهي في إطار الظاهرة أرض الغزَّال، ومنزله، ودكان السَّمَّاك، ولكنه في الظاهراتية هنا مكان التجربة المعاشة لا نرى فيه سوى الظاهرة بين السَّمَّاك والغزَّال والجوافة، أما الإطار المكاني العام للظاهرة بيئة الجاحظ، والإطار المكاني الخاص هو قطعة الأرض التي أكرى نصفها.

ويمكننا تحت بنية البخل الكبرى أن نلاحظ خمس بنى فرعية، هي:

- بنية يمثلها مستوى البخل والشح: وهذا واضح في حمله الرغيف في كمه، وعدم أكله الأدم، وحصوله على سمكة الجوافة دون غيرها، وما جرى منه مع هذه السمكة في الغداء.
- بنية يمثلها مستوى الاستماتة على المال: الفلس الذي يتعامل به، وأخذه الغزل من المرأة الضعيفة مقابل الجوافة.
- بنية يمثلها مستوى الظلم والاستغلال والتحايل: تأجيره نصف الأرض للسَّمَّاك، وعدم إعطائه ما يستحق مقابل الجوافة، واستغلاله بأخذ الملح منه، والتحايل على المرأة من أجل الحصول على الغزل.
- بنية يمثلها الصراع النفسي الذي يعيشه البخيل بين عاطفته التي تدعوه إلى الإمساك، وحركة شهوته التي تميل إلى التمتع (صراع بين البخل والشهوة)، والغلبة للأولى بينما تبقى الثانية خلف القضبان تبرز كلما وجدت إلى ذلك سبيلًا.
- بنية يمثلها الاغتراب المتمثل في انتقال الشخصية من الريف البسيط إلى المدن المزدهرة المكلفة.

ظاهراتية أبعاد الشخصية: وتظهر في خلق الجاحظ لشخصية كاملة للبخيل بأبعادها كافة، وصوَّرها منسجمة مع الواقع المعاش بكل تفاصيله، وانتظمت الشخصية مع باقي عناصر النص باتساق وانسجام، مصورة الأسس الاجتماعية والاقتصادية لبنى المجتمع، والشخصية البخيلة هنا تمثل النوع الأدبي للمجتمع.

وصوَّر مظاهر الشخصية الداخلية والخارجية من شكل وملبس وتصرُّف ليدل على نفسية الشخصية وأحوالها وشعورها تجاه النواحي الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، ووصفه للشخصيات وصف وظيفي تفسيري لا اعتباطي، فهو يشارك المتلقي في تجسيد أحوال الشخصية وما توحي به، بحيث تفاعل المتلقي معها؛ فنتج عن ذلك شد عاطفي لها، فوصف الظاهرة مشحون بدلالات اجتماعية وثقافية ونفسية ويحتمل أن تشير إلى أعباءٍ اقتصادية كعدم استطاعته تحمل نفقة العيش والمأكل.

وقد ساهم الوصف الظاهري في إبراز ما في جعبة الجاحظ؛ إذ قدَّم مظهر الشخصية بوصف الهيئة والملبس والمأكل والمعيشة؛ مما يشعر بالتفاني في البخل إلى آفاق بعيدة، وكان للسياق –مع الظاهراتية– دوره في ظهور بلاغة الجاحظ وشهرته.

كما أنه تغلغل في أعماق النفس البشرية في حالتها السوية المعتادة الطبيعية، وفي حالتها المنحرفة ليخرج لنا بنصوصه في كتابه البخلاء[١].

ومن مجالات اهتمامات الظاهراتية: الصياغة، والاهتمام بالموضوع لتنتقل إلى الذات الموجه الموضوع صوبها، ويقاس مدى اكتمال الصورة وقوتها من خلال حضورها في ذات الآخرين (ظاهريتها)، ومن هنا ينشأ الموضوع الجمالي الذي يفصل القول في الإيحاءات (أي التعبير الفني) من خلال مبناها الذي يمثل موقفًا نفسيًّا[٢].

وقد أجاد الجاحظ تلقي صور البخل بمجرد ظهورها، وظهر أدبه من دلالاته الأدبية، وقدرته على صناعة صورة أدبية جديدة تؤثر في المتلقي، وتكشف عن رؤية الأديب الذاتية للظاهرة أمامه، وتبرز دقته البلاغية في تأويلها.

وقد امتاز نصه بالحجج والبراهين وكثرة الاحتجاج والجدل والمحاورات مع البخيل لإثبات كلامه وبيانه فائدة البخل.

أمَّا من حيث الأسلوب فيلاحظ أن جمله تقريرية خبرية، وأنه اعتمد على الشرط الذي يفيد التقرير (إذا)، واعتمد الروابط بين الجمل (الفاء التعقيبية التي تؤكد الحركة السريعة وعدم صبر البخيل والتنقل والتتابع في الأحداث).

(١) ينظر: الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ، نوري جعفر (ص٦).

(٢) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي، (ع١٢/ ص٢٢٨).

أما الرؤى الجمالية الظاهرة في نص الجاحظ فتبرز في المحاكاة، وما فيها من تشبيه واستعارة وكناية، وفي التشخيص والتجسيد والرمز، وهيمنة اللغة المرئية على اللغة المنطوقة في حكاية الجاحظ، وتصويره سلوكيات البخيل من التشكيل الظاهراتي المكاني كاختيار الفضاءات الواسعة على سبيل المثال.

كما يظهر التكرار في الألفاظ، في (السَّمَّاك) الذي يصور النقطة التي ينتقل منها إلى البخيل، وتكرار (اللقمة) التي تؤكد حرص البخيل على أن لا يزيد عن هذا المقدار، مع تكرار التعليل باللام لكل تصرف يصدر من البخيل؛ كي لا يظن فيه أنه فعله لغرض آخر غير بخله، ونجد الجمل في أغلبها قصيرة ومع ذلك وصفت بدقة عن طريق الألفاظ التي انتقاها وتخيرها الجاحظ ليطلقها في وصف الظاهرة التي ركَّز فيها ليصف المشهد بكل تفاصيله، دون دخول في تفصيلات أخرى، ونلاحظ غرابة الألفاظ التي ناسبت تصرفات البخيل الغريبة عن الإنسانية الطبيعية، كما أنه وظَّف الشخوص وكل ما في النص السردي من علاقات وزمان ومكان في خدمة الظاهرة ووصفها.

وقد خلق أنموذجًا فنيًّا للبخل، قوامه الكذب والكدية بصورة ترسخ في الأذهان على مر الأزمان، كما حشد النعوت وكثَّفها لحد الإفراط من أجل شحذ المعنى والوصول به إلى ذهن المتلقي متألقًا مدهشًا، وقد وجَّه المتلقي للغاية من خلال توجيهه نحو موقف محدد، وهذا الوصف الظاهري يضفي قيمة عالية متمثلة في التلازم بين البخيل وسلوكه، واستطاع بوصفه الظاهرة تجاوز حقل الأدب إلى حقول أخرى كالمكان والزمان والتاريخ، وكانت الأفعال مرتبطة بحاسة البصر (رأيت، وكنت عند، وكنا...) فنقلت الأحداث، كما ارتبطت بحاسة السمع وكلها ظواهر حسية، وفي عمله عمق شخصيته ونفسيته، وفيه ظرف ودعابة وفكاهة ومزج الجد بالهزل، وامتاز سرده بالبلاغة، وصوَّر الذكاء وكيفية توظيف البخلاء له في أعمالهم البخيلة بما يثير المرح والسرور في نفوسنا ويدفع الملل والسأم، ووصف الظواهر بسلاسة وبساطة تناسب كل المقامات.

ونلحظ في النص ظاهرة البخل قد تحولت إلى كائن حي سيطر على النص فولَّد العديد من التصرفات والظواهر الدالة عليه، من قوله: "كان أعجوبة في البخل، فأكرى نصفها، كان يجيء...".

ويحتمل أن يكون الجاحظ قد خلق شخصيات بخيلة متخيلة لا وجود لها بالواقع [١]؛ لذلك نلحظ المبالغة والإفراط وتغريب الواقع ومحاولة إقناع المتلقي.

وقد تردد الاستشهاد بالقرآن والحديث خاصة في مجال البخيل، والاستشهاد بالأطعمة؛ مما يشير إلى أنه مجتمع نابض بالحياة، صوَّر البخيل أكولًا،؛ وهذا لأن كرم العرب في الضيافة يقابل البخل، وطعن به الجاحظ الشعوبيين، وهو طابع حضاري يدل على انتماء الأثر الأدبي إلى الثقافة العربية، وقد رسم بالظاهرة صورة البخيل والأكول فنيًّا، وهو وصف للظاهرة يحمل في طيَّاته السخرية وإن كان في الظاهر جديًّا، واستعمل مادة السخرية للتصوير ووصف الظواهر، وهي أكثر الألوان التي استعملها لرسم صورة البخيل الفنية، وسخريته دقيقة، بعيدة التضخم والبعد عن الواقع[٢].

كل ذلك يكشف لنا كيف كان الجاحظ مفكرًا عميقًا، ومصلحًا اجتماعيًّا من الطراز الأول، فقد كان في نصه يصف بمستويات واضحة بدءا من ظواهر البخل في النصوص الجزئية ليصل إلى الظاهرة الكبرى التي جمعت جميع الظواهر في نصوصه في كتابه تحت عنوان البخلاء الذين اجتمعوا تحت هذه العتبة مع اختلاف أوصافهم وتجاربهم، وأراد من ذلك فضح هذا الوضع المسكوت عنه الذي فشى في المجتمع المترف، فعالجه بطريقة فنية ذكية تقوم على الفكاهة، وتبعث على الاشمئزاز منها في الوقت نفسه، ووصف جمال ظاهرة البخل مفسرًا لها متناسيًا جوهر البخل الطبيعي، وكونه صفة مذمومة، كما أن الجاحظ يصوِّر في نصه البخيل وسلوكياته بفوتوغرافية طبيعية، ينفذ منها إلى البنية الداخلية، ويجذبنا إليها ببلاغة مؤثرة، وكون الجاحظ رائيًا فإنه يقدم لنا مقاربة رؤية ظاهراتية بلاغية من خلال وصفه سلوك البخيل[٣]، وبرز ذلك في نص واحد من كتابه الذي عالج فيه من خلال النص المختار للدراسة ظاهرة البخل التي تفشت في المجتمع الإسلامي، التي تحيل كل مجتمع إلى التخلف بمجرد التصاقها به، ووجدناه يصف الظاهرة بحدس واعٍ، ويرصدها رصدًا دقيقًا بقصد استعراض كل أوجه البخل في العبارات اللفظية والتصويرية حتى يمكن تجنبها، وإلى

(١) ينظر: الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ، نوري جعفر (ص٦).

(٢) ينظر: بخلاء الجاحظ: دراسة نقدية، ستار رزيج (ع٤٦/ص١٦١)

(٣) ينظر: النظرية الظاهراتية: المقولات والتوظيف الجمالي، سلام الأوسي (ع١٢/ ص٢٣٣).

جانب معالجته للبخل نجده أيضا عن طريق الظاهراتية يعالج قضية الوصف اللغوي، فقد تعامل فيها مع الألفاظ بدقة في اختيار الألفاظ المصورة للظاهرة، وعتبة النص تدل على الوصف للظاهرة وللغة التي عبرت عن الظاهرة التي تفشت، وما كان له ذلك إلا بالوقوف على العلاقات الظاهرة أمامه في تجربته التي عايش فيها الغزَّال البخيل في النص السردي (القصة القصيرة) التي توفرت فيها مقومات السردية، ورأينا فيها تكثيفًا يتمثل في الشخصية الرئيسية (البخيل)، والحدث الرئيسي فيها تناوله للغداء المكون من الرغيف وسمكة الجوافة، وقد فصل الجاحظ كل ما يتعلق بذلك بدءًا من طريقة الحصول عليه، وحتى الانتهاء منه، والعبرة التي يخرج بها كل قارئ من هذه القصة.

**الخاتمة**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تناولت الباحثة في هذه الدراسة نظرية نقدية حديثة (الظاهراتية: الفينومينولوجيا) في ضوء رؤية بلاغية جديدة؛ باعتبارها آلية من آلياتها، فوضَّحت مفهومها عند مؤسسها، ومن بعده من أهم أعلامها بيسر ووضوح، وتطرقت إلى ما يرتبط بها: (الحدث، والقصدية)، فعرفت بهما وبينت آلية عملهما، وأهميتهما في نظرية الظاهراتية والبلاغة، كما تناولت الزمان والمكان في الظاهراتية، ووضحت خصائصها، وخطواتها، ومدى ارتباطها ببعض النظريات، وبالأدب والبلاغة.

وطبقت في المبحث الثاني للدراسة على نص للجاحظ من كتابه (البخلاء).

هذا وقد خلصت من الدراسة ببعض النتائج، من أهمها:

ارتباط هذه النظرية بغيرها من النظريات المعاصرة، وتشعبها من بعضها البعض كارتباط نظرية التأويلية، ونظرية التلقي بها.

تدرج مفهوم الظاهراتية بدءًا من مؤسسها (هوسِّرل) إلى آخر من تحدث بها، مما أدى إلى تشعب مفاهيمها عبر تطورها عند أصحابها.

اختلاف الزمان والمكان في الفينومينولوجيا عن الزمان والمكان المعروفين.

فاعلية النظرية في وصف الظواهر وقدرتها على إبراز أسرار بعض النصوص البلاغية، والكشف عن فائدة النظرية كمنهج وأداة إجرائية في التحليل لفهم ما أعماق النص أو الخطاب، وتوافقها مع منظومة مفاهيم البلاغة العربية ومصطلحاتها.

تشابُك حقل الظاهراتية مع حقل البلاغة والحجاج في نص الجاحظ.

تجدُّد عطاء التراث العربي البلاغي في ضوء المعطيات النقدية الجديدة.

تأثير أسلوب الظواهر في تعبير الجاحظ وتصويره لظاهرة البخل أبلغ تأثير وأجمله وأدقه؛ إذ جمع بين أسلوب المؤلف في كشف الظواهر، وأسلوب النص في التأثير في المتلقين بهذه الظواهر.

اقتراب ظاهراتية الجاحظ من الإقناع والتأثير والحجاج، وهي الوسائل التي تقوم عليها البلاغة الجديدة.

ترجمة الظاهراتية للحقائق، وتأثيرها في لغة الفرد أثناء التعبير عن الظواهر، واندماجها مع غيرها من المناهج للمساهمة في الوصول إلى دلالات وملاحظات بلاغية ساهمت في تمكُّن العمل الأدبي، ونموذج ذلك آثار الجاحظ وأدبيته.

اتجاه الدراسة نحو البلاغة التأويلية في ظل المنهج الظاهراتي لبلوغ المقصد البلاغي في نص البخلاء للجاحظ.

**أمَّا أهم مقترحات الدراسة فهي:**

- الجمع بين واقع البلاغة العربية وآفاقها المنتظرة، واستحضار منظور جديد للبلاغة من خلال استثمار المناهج النقدية الحديثة لتذوق نصوص التراث العربي القديم القيمة، ودمج البلاغة بالمناهج النقدية واستيعابها لها بوعي فني وجمالي وأسلوبي ضمن قواعدها التليدة المتجددة دون الانشغال بما وراء هذه المناهج من قضايا العقل والمنطق والإغراق فيهما.
- توظيف الظاهراتية توظيفًا جماليًّا في دراسة النصوص، والانطلاق منها إلى التأويلية، والإفادة من ذلك في التحليل، واعتبار ذلك من باب المصالح المرسلة الساعية إلى تمكين البلاغة العربية وتجديدها.

هذا وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا ابتغاء وجهه الكريم، وأن يرزقنا التوفيق والسداد إن الله على كل شيء قدير.

## المصادر والمراجع

### الكتب:

١. إشكالية العقل والوجود في فكر ابن عربي بحث في فينومينولوجيا الغياب، الصادقي، أحمد، ط:١، بيروت-لبنان، دار المدار الإسلامي، ٢٠١٠م.

٢. البخلاء، الجاحظ، عمرو، تحقيق: أحمد العوامري بك، وعلي الجارم بك، د.ط، لبنان - بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣. الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ، جعفر، نوري، (د.ط)، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١م.

٤. دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، ط٥، الدار البيضاء-المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م.

٥. الشخصية: النظرية، التقييم، مناهج البحث، الشماع، نعيمة، د.ط، القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، د.ت.

٦. الظاهراتية، ليوتار، جان، ترجمة: خليل الجرّ، (د.ط)، بيروت-لبنان، مؤسسة نوفل، (د.ت).

٧. فكرة الفينومينولوجيا، هوسِّرل، أدموند، ط:١، سورية-اللاذقية، دار الحوار، ٢٠٠٩م.

٨. الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني: رؤية نقدية، البشر، محمد بن سعود، ط١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية-الرياض، ١٤١٥هـ.

٩. فينومينولوجيا الخطاب البصري مدخل الظاهراتية الرسم الحديث، الزيدي، جواد، ط:١، سورية-دمشق، دار الينابيع، ٢٠١٠م.

١٠. الفينومينولوجيا عند هوسِّرل: دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، محمد، سماح، ط١، د.م، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠م.

١١. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، ط:٣، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ.

١٢. المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم انجليزي- عربي، عناني، محمد، ط١،

الشركة المصرية العلمية– لونجمان، شركة أبو الهول للنشر– دار نوبار، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٣. معجم السيميائيات، الأحمر، فيصل، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم، الجزائر، منشورات الاختلاف، ١٤٣١هـ–٢٠١٠م.

١٤. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، علوش، سعيد، ط١، بيروت–لبنان، دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء، المغرب، سوشبريس، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.

١٥. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، وهبة، مجدي والمهندس، كامل، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

١٦. معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، سعيد، جلال الدين، (د.ط)، تونس، دار الجنوب، ٢٠٠٤م.

١٧. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، د.ط، القاهرة، دار الدعوة، د.ت.

١٨. المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، راي، وليم، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، ط١، بغداد، دار المأمون، ١٩٨٧م.

١٩. مناهج النقد العربي الحديث المعاصر، حمداوي، جميل، (د.ط)، بريدة، نادي القصيم الأدبي، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٠. نظرية التلقي أصول وتطبيقات، صالح، بشرى، ط:١، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٩م.

٢١. نظرية المعنى بين التوصيف والتعديل والنقد، الودرني، أحمد، (د.ط)، تونس، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٧م.

٢٢. هوسّرل ومعاصروه من فينومينولوجيا اللغة إلى تأويلية الفهم، إنقزّو، فتحي، ط١، د.م، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م.

**المجلات والدوريات:**

١. التيارات المعاصرة في فلسفة التربية، خضر، محسن محمود، مجلة التربية، قطر، ع (١٦٤)،

س (٣٧)، ٢٠٠٨م، ١٢٨-١٤٩.

٢. الرواية من منظور نظرية التلقي، مساعدي، محمد، مجلة أقلام جديدة، الأردن، ع (٣٢)، ٢٠٠٩م، ١٠٨-١١٢.

٣. الزمان والمكان في الظاهراتية والصوفية، علي، صلاح سليم، المجلة الثقافية، الأردن، ع (١٤-١٥)، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ٩٩-١١٠.

٤. ظاهراتية الحلم في شعر نازك الملائكة، خضير، محمود خليف، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، د.م، مج (١٢)، ع (٣)، ٢٠١٣م. ٢٤٩-٢٧٤.

٥. الظاهراتية وتأثيرها على أداء الممثل في عروض المسرح العراقي، علي، عبد المحسن علي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل، العراق، ع (١٠)، ٢٠١٢م، ٢٨٠-٢٨٦.

٦. ظاهرة البخل عند الجاحظ، طاهر، حامد، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ع (٩)، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ٢٠١-٢٢٤.

٧. العقل في الفلسفة الظاهراتية، البشر، محمد سعود، مجلة القافلة، الرياض، مج (٤٤)، ع (٨)، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ٣٠-٣١.

٨. عمليات القراءة مقاربة ظاهراتية، إيزر، فولفجانج، فصول، مصر، مج (١٦)، ع (٤)، ١٩٩٨م، ٣٤٤-٣٥٨.

٩. الفينومينولوجيا وفن التأويل، الزين، محمد شوقي، مجلة فكر ونقد، د.م، ع (١٦)، ١٩٩٩م، ٧١-٨٤.

١٠. الفينومينولوجيا: ماهيتها ونظريتها في الفلسفة، البشر، محمد بن سعود، مجلة الحرس الوطني، د.م، ع (١٥٣)، س (١٦)، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ٨٨-٩٠.

١١. القصدية ومشكل تأسيس الفينومينولوجيا عند هوسِّرل، أحمد، يوسف، مجلة الفكر العربي المعاصر- مركز الإنماء القومي، بيروت-باريس، مج (٢٨)، ع (١٤٠-١٤١)، ٢٠٠٧م، ٧٣-٨٦.

١٢. ملاحظات نحو فينومينولوجيا السرد، ميتز، كريستن، ترجمة: باقر جاسم محمد، مجلة الثقافة الأجنبية دراسات ونقد، د.م، ع(١)، س(٣١)، ٢٠١٠م، ٣٩-٤٤.

١٣. موضوع علم الدلالة "منظور فينومينولوجي"، عياشي، منذر، القافلة، الظهران- المملكة العربية السعودية مج (٤٣)، ع (٦)، ١٤١٥هـ، ٢٠-٢٣.

١٤. النظرية الظاهراتية المقولات والتوظيف الجمالي، الأوسي، سلام كاظم، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة كلية الآداب، العراق، ع (١٢)، ٢٠١١م، ٢١٤-٢٤٧.

**الرسائل العلمية:**

الفينومينولوجيا باعتبارها العلم الكلي عند هوسّرل: دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، محمد، سماح رافع، رسالة ماجستير، القاهرة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٤٠٤هـ.